

إدريس عليه السلام نبي العلم والحكمة

د. هدى درويش

رئيس قسم الأديان المقارنة

٢٠٠٩/٧/١

جامعة الزقازيق

لم يكن الموقف الإسرائيلي تجاه سفينة الحرية وليد الساعة فهو حلقة فى سلسلة طويلة من الحلقات فى انتهاك حقوق المدنيين وقتل الأبرياء ، حتى أصبحت الكرامة الإنسانية مضرجة بسيل من دماء الأبرياء والنساء والأطفال اجراه هؤلاء دونما انصياع للقوانين العالمية ولا حتى القوانين الإنسانية .

كذلك لم يكن الموقف التركى تجاه فلسطين وليدًا فى حادث سفينة الحرية ، وإنما هو أيضًا حلقة فى سلسلة طويلة من حلقات انبراء الأتراك للدفاع عن المقدسات الإسلامية فى فلسطين لمحاولة النجاة بها دون أن تدنسها أقدام اليهود ، وهو ما أشار إليه أردوغان فى قوله "من اجتهد فى طلب الحكمة وتزين بالأدب أصاب ما يرغب فيه من خير الدنيا والآخرة"

، بهذه الحكمة الجليلة دعانا إدريس (عليه السلام) صاحب المكانة العلية والعلوم الإلهية، أول نبي مرسل بعد آدم عليه السلام ، الذي عاش فترة ما قبل الطوفان وقبل نوح (عليه السلام) ، وذكره المولى عز وجل فى كتابه العزيز فى سورتى مريم والأنبياء ، بأنه صديق نبي ، ومكرم برفعه إلى مكان عليّ ، وأنه من الصابرين وهو الذي قابله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليلة معراجة فى السماء الرابعة ، وسلم عليه ودعاه بالأخ الصالح ، وهو الذي حدث فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) إنه أول من خط بالقلم، وأنزل عليه ثلاثون صحيفة ، (ذكره البخاري فى المناقب ، ومسلم فى الإيمان ، وأحمد فى مسنده ، وابن حبان فى صحيحه) . وتحدث عنه المفسرون فقالوا أنه أول من خاط الثياب ولبسها ، وكانوا يلبسون الجلود من قبله . وكان لا يغرر إبرة إلا قال : سبحان الله . وهو أول من نظر فى علم النجوم والحساب ، وأول أولي العزم ، وكان عبدا تقيا رفع له من العمل الصالح ما رفع لأهل الأرض فى زمانه ، وهو أول من تكلم فى الجواهر العلوية والحركات النجومية ، وقالوا أنه هو أول من استخراج الحكمة ، وعلم النجوم ، وأفهمه الله عز وجل سر الفلك ، ونقطة اجتماع الكواكب فيه ، وأفهمه

عدد السنين والحساب ، وأمر قومه بالصلاة والصيام والزكاة ، وغلظ عليهم فى الطهارة من الجنابة ، وحرم السكر من المشروبات ، وجعل لهم أعياداً فى أوقات معلومه ، وعرف قومه صفة النبي محمد (ﷺ).

وذكرته اليهودية أنه أنزل عليه ألواح سماوية قرأ فيها و تعلم منها أعمال البشر كلها وجميع الأحياء على الأرض حتى نهاية الزمان .

وإدريس (عليه السلام) كان نموذجاً للقصاص اليهودية التي دخلت التفاسير الإسلامية، تلك الشخصية التي اكتنفها الغموض والاختلاف في الآراء حول علمه ومكانته من الله تعالى ، كما حكيت الكثير من المبالغات حول علاقته الحميمة بالملائكة، سواء في المصادر اليهودية ، أو التفاسير الإسلامية .

وقد اختلف في مسمى إدريس (عليه السلام) وألقابه باختلاف الثقافات والديانات المعاصرة لعهدِه ، كذلك اختلاف الترجمات المروية عنه من آرامية وعبرية و يونانية وعربية وفارسية حتى قاربت العشرين اسما ، فهو إدريس (عليه السلام) في القرآن الكريم والسنة المشرفة، وهوريس وهرمس وتحوت في المصرية القديمة، وحانوخ عند اليهود، وإينوخ في الكتابات اللاتينية، و أخنوخ في الترجمة العربية للتوراة وقيل هو هرمس عند العرب و ترميس باليونانية ، ورغم كثرة أسمائه فالمتفق عليه أنه شخص واحد يحمل ذات الصفات والعلوم الإلهية.

والحقيقة فإن مكانة النبي إدريس (عليه السلام) العالية وذكره في الكتب السماوية وبيان اختصاص الله تعالى له بالمدح والتصديق والقرب منه تعالى ، جعلته متميزا تتنازعه الأمم بالانتساب إليها كاليونانيين والفرس والبابليين والعرب والرومان كذلك قداماء المصريين ، كما تناوله المفسرون اليهود بالكثير من القصص والروايات التي تذكر صفاته ومكانته في محاولة لنسبته إلى اليهودية ، وعلى الرغم من ذكر هذه الكتابات لمكانته ومرتبته إلا أننا نلاحظ أنه حتى وقتنا الحالي لم تظهر دراسة كاملة لحياة هذا النبي الجليل ، وهو ما جعلني أتوجه إلى إخراج كتاب يحاول التعرف على هذا النبي ذي المكانة الرفيعة المذكورة في القرآن في آية صغيرة ولكنها عظيمة المعاني وتدعو إلى التفكير والنظر والتأمل في صاحب هذا المكان العالي الرفيع حيث صدر كتاب (نبي الله إدريس (عليه السلام) بين المصرية القديمة _ وما احتوت عليه من متون "هرمس" (إدريس (عليه السلام) - واليهودية - التي تحدثت عنه وحاولت أن تنسبه إلى أنبياء بنى

إسرائيل لمكانته العظيمة وقدراته الفائقة وعلومه الغزيرة وعلاقته بالملائكة - أما الجانب الإسلامي فكان بالرجوع إلى الأصل القرآني وما جاء في أحاديث صحيحة للرسول (ﷺ)، ثم التطرق إلى ما احتوته التفاسير الإسلامية لقصة إدريس (عليه السلام) وما دخل فيها من إسرئيليات وبعض الروايات التي لا يصدقها العقل حيث أوصينا بتوجه العلماء والمحققين وذوى الاختصاصات إلى تنقية التفاسير الإسلامية من الروايات غير الصحيحة .

ونظرًا لكثرة المعارف حول هذا النبي فإن كتابة صفحات قليلة لا تكفي قدره العظيم الذي نريد أن نبرزه للقارئ لذا فاسمحوا لي أن أتحدث في هذا المقال عن الرؤية الروحية لسيدنا إدريس (عليه السلام) من خلال متونه ، ففي حديث إدريس (عليه السلام) عن الإنسان يقول: "خلق الله الإنسان ليكون قناة له في خلق النظام والجمال في الكون ، والطبيعة تضع الإنسان فوق الكائنات الإلهية، فكواكب البروج تدور محدودة في أفلاكها لا تستطيع منها فكاكًا ، لكن الإنسان قد يكون على الأرض ولكنه يرتفع إلى الأفلاك بقوة فكره في ذات الوقت " .

أما كيفية الوصول إلى المعرفة الإلهية فيبينها إدريس (عليه السلام) بقوله : " حتى نستطيع أن نصل الى ذلك ، علينا أن نتخيل أنفسنا في كل مكان في نفس الوقت ، وأن نحتضن كل المتناقضات ، ونعلم أننا خالدون ، ونتصور أنفسنا في الرحم والقبر معًا ، وبهذا نستطيع أن ننصهر ونذوب في الروح العلية " .

ويصور إدريس (عليه السلام) الإله كالموسيقي الذي يبدع تناسقات الكون " ويعطي لكل منا دورًا ليلعبه ، فإذا بدت الحياة لنا نشازًا فليس اللوم على الموسيقي الأعظم ، ولكنه يقع علينا ، فنحن الأدوات الموسيقية - المترهلة الأوتار - التي يشوب أداؤها جمالَ اللحن . والله بطبيعته كالموسيقي الذي يؤلف توافقات الكون ، ويوحى إلى كل فرد بإيقاعات موسيقاه فإذا كانت الموسيقى نشازًا فلا تلم المؤلف ، بل أوتار القيثارة التي ترهلت لتشوه جمال النغمات " .

وتظهر أعماق روحه عليه السلام في تسبيحاته ومناجاته لله إذ هي في حد ذاتها تجليات وفيوضات إلهية وتوجهات إلى الله الواحد الأحد يقول إدريس (عليه السلام) في صلاته وتسابيحته التي وردت في كتاب متون هرمس المتن العشرين محدثًا الله جل جلاله "أيتها العدالة سبحي للحق في

ذاتي ، أيها الصدق سبح للقدوس في روحي، أيتها الأثرة سبحي للمهيمن في صلاتي ، هي
كلماتك التي تتغنى بمدحك من خلالي ، فالكل منك ، والكل إليك .

تقبل قرابين الكلم هذه من جسد وروح تعاليا إليك ، فليس هناك لسان قادر على النطق،
ولا يفصح لك سوى الصمت ..أحمدك بقلب فياض ، فبلطفك فحسب ، أدرك نورك وعرفانك
..أشكرك يا من لا يعلم اسمه أحد ، يا من نعرفه باسم الإله الواحد ، فأنت مولانا .

العقل الذي يمكننا من التقرب إليك ، والنطق الذي يتيح لنا أن ندعوك ،

والمعرفة التي تهيب لنا الخلاص في نورك ، وتملؤنا بغبطة وجودك ..لا سبيل إلى
حمدك سوى بتعلم عظمتك ..تعلمت معرفة جلالك بنور العقل الوضاء ..تعلمت أنك حياة
الإنسان الحقيقية ..تعلمت أنك الرحم الذي يلد ذاته ..تعلمت أنك الثبات الأبدي الذي لا يتحرك ،
ولكنه يحرك الكون بأجمعه ..من ذا الذي يستطيع الحديث عنك ؟ ..من ذا الذي يستطيع
الحديث إليك ؟ أين أولى وجهي لأحمدك ؟ .. أنت اللانهائي الذي يحتوى كل المتاهيات .
وليس هناك مكان ليس أنت ، فالكل فيك أنت..ماذا أستطيع أن أقدم لك ؟ فأنت كل شئ ، تمنح
كل شئ ، ولا تأخذ أي شئ ، ولا ينقص منك شئ ..أتى لي أن أحمدك ؟ هل أحمدك لما تظهر
أم لما تخفي ؟ وأنى لي أن أسبح بحمدك ؟ ..فهل أنا حاكم على ذاتي ؟ وهل لي ما هو ملكي ؟
وهل أنا غيرك ؟ ..فأنت كل ما هو أنا . أنت كل ما أفعل . أنت كل ما أقول ..أنت كل ما
يحدث . أنت كل ما لم يحدث ..أنت العقل في فكري ..أنت الإله الواحد الذي يفعل كل شئ
..أنت الخير والإحسان الأول في كل مكان .

لقد أفصحت لى عن كينونتك فأمحيث ، وجعلتني - بهبة من روحك الخالدة - في زمرة
الكائنات الإلهية ، ولم أبرح جسدي بعد ، فملأتني بالبهجة .. بتساويحي هذه أعبدك يا من أنت
الخير وحدك .

ولا أطلب سوى أن تكون مشيئتك ألا أتحول أبداً عن عرفانك وحبك ، والحياة المباركة
في ظلك . يا من وهبتني تلك الرؤى الخيرة الجميلة ، لقد كادت عين عقلي أن تغشى من نور
بهائك السرمدى الذي يكسف الضوء المرئي ، ولا تحميني منه سوى رحمتك ..لقد أبدعت في
كياني كياناً دون مادة ، ألحقني بكيانك الأبدي ..لقد ولدت ثانية في الفكر ، فلم يعد لي الجسد

الذي كان لي ..لم أعد ذلك الشئ المجسد الملون ..لقد صرت غريباً عن كل ما يُرى بعين الجسد..إنني أداتك ، والعقل قيثارتك ، وحكمتك تفجر في الموسيقى ، ..فأغنى روعي بعد أن مسني حبك .

لقد أبدعت مني كائناً جديداً لم يعد يُرى بعين الجسد ولكنه يُشهدُ بنور العقل .

وعندما يولد المرء من جديد ، يفقد جسديته الملموسة ذات البعاد ويصبح كله عقلاً .

أدرك أنني أصبحت الكل ، إنني في السماء والأرض ، إنني في الماء والهواء ،

إنني في الوحش والطيير ، إنني رضيع ، إنني في الرحم ، إنني قبل الحمل ، إنني الحضور الحاضر في كل مكان ..إننى العقل فقد رأيت . وجدت ما كنت أبحث عنه ، وجدت السلام بمشيئتك ، لقد ولدت مرة أخرى ..لا تكفي اللغة ، فالكائنات الإلهية تغنى تسابيحاً بالسكون ، وأنا أصبح صامتاً"

والآن أضع بين يديك أخي القارئ صفة من حكم وتأملات وصفات سيدنا إدريس (عليه السلام) علنا نبحر بفلك الحكمة إلى بحور الفضائل والقيم التي لا تبلى ولا تَفنى إنما تبقى ما بقيت البشرية ، فعندما دعا إلى تقوى الله قال : " اعملوا واستيقنوا أن تقوى الله - سبحانه - هي الحكمة الكبرى والنعمة العظمى، والسبب الداعي إلى الخير، والفتاح لأبواب الفهم والعقل؛ لأن الله (ﷻ) لما أحب عباده، وهب لهم العقل واختص أنبياءه ورسله بروح القدس، فكشفوا لهم عن سرائر الديانة وحقائق الحكمة لينتهوا عن الضلال ويتبعوا الرشاد" . فالتقوى تستلزم وجود الطاعة ، والطاعة تُوجب الشكر لله .

ثم يوجه إرشاده للناس بقوله : "ليكن همُّكم مصروفاً إلى الله ربِّ السماء والأرض - سبحانه - وارفعوا إليه صلواتكم ودعاءكم بصفاء من ضمائركم وعلى غير شوب من خواطركم . واجهدوا أن تتاجوه بقلوب سليمة واعتقادات مستقيمة ، يسمع منكم ويستجب لكم ، ويبلغكم آمالكم ، ويفتح لكم أبواب الرُّشد في مساعيكم ومتوجِّهاتكم ، ويعصمكم من أفكار السوء ، ويحفظُ أنفسكم من المكاره ، ويُنجكم من فحاح الآثام ، ويردِّ عنكم المخاوف ، ويكُفُّ رؤوس أعدائكم تحت أقدامكم"

وحين دعا إلى الإحسان وترك الجهالة مع الخالق والمخلوقين قال: "لا تتفاضلوا إلا بأعمالكم، ولا تجوروا في الحكم، ولا تستعملوا النفاق، ولا تُزكُّوا الخونة، ولا تُخونوا الأركيَاء" (أصحاب الصفات النبيلة والهداية الإلهية) .

إنها كلمات من ذهب مرصعة على تاج العقل والروح أوصانا بها إدريس (عليه السلام) فيدعونا إلى ترك الدنيا فإنها تفنى كأنها عدم ، فلا ملاذ فيها باق ولا متاع بها دائم فيقول : "لكل شيء حيلة غير الموت؛ وكل شيء فان غير الإثم؛ وكل شيء يبئد غير العمل الصالح؛ وكل شيء يطاق تغييره غير الطباع؛ وكل شيء يُقدر إصلاحه غير الخلق السوء .

ويقدم لنا الحكيم إدريس عليه السلام درسًا حول كينونة الدنيا ومن يحرص عليها فيقول :
"الدنيا تهين من كانت تكرمه، والأرض تأكل من كانت تطعمه" .

وقد اتسعت حكمة إدريس (عليه السلام) لتشمل توجيه النصح للملوك والحكام فنجده وكأنه قد تخطى العصور والأزمنة ليخاطب حكام وملوك عصرنا فيقول للحاكم " أول ما أمرك به تقوى الله عز وجل وإيثار طاعته . ومن تولى أمر الناس يجب عليه أن يكون ذاكرًا لثلاثة أشياء: أولها : أن يده مطلقة على قوم كثير ؛ والثاني : أن الذين يده مطلقة عليهم أحرار لا عبيد ؛ والثالث : أن سلطانه إنما يثبت مدة يسيره " .

ويخاطب الحاكم بقوله : " إذا لم يكن الحاكم يقدر على قهر حواسه وغلبة شهواته ، فكيف يقدر على ضبط رعيته ، فسبيل الملك أو الحاكم أن يبتدئ بسلطانه على نفسه ؛ ليستقيم له سلطانه على غيره ، واعلم أن الرعية تسكن إلى من أحسن إليها ، ولا تحسن المملكة إلا بالرعية . ثم يحذره بقوله: "إياك والغفلة عن النظر في أمورهم وأمور مملكتك ثم نفسك" .

وعن العلم والحكمة فيدعو إدريس (عليه السلام) إلى السعي إليهما وتعلمهما فيقول: "حياة الناس في الحكمة ، فالحكمة والإيمان بالله لا يفترقان : إن وُجِدَ أحدهما ، وُجِدَ الآخر ، وإن عُدِمَ عُدِمَ ؟ " ثم يعلمنا كيف نتذوق الحكمة فيقول: "استشعروا الحكمة واتبعوا الديانة ، وعودوا أنفسكم الوقار والسكينة ، وتحلوا بالآداب الحسنة الجميلة ، رووا في أموركم ولا تعجلوا ، ولا سيما في مجازاة المسيء ؛ واجعلوا الحياة ملء وجوهكم ، والخيفة من الله حشو جنوبكم ، وتدبروا بالصحة

، وتقع فى أرض إسلامية ، لابد أن نظل القدس لنا" فها هو يستحضر مقولة صلاح الدين الخالدة للصليبيين "القدس لنا" ولم يجد اليهود أمامهم سوى العمل بكل الوسائل من اجل التخلص من السلطان عبدالحميد والقضاء عليه

وسار الأتراك أبناء السلطان عبدالحميد على درب آبائهم العثمانيين فى الدفاع عن أرضهم ومقدساتهم ودمائهم .

إن مدينة القدس الشريف إسلامية ، وستعود إسلامية - إن شاء الله - بعد تخليصها من أيدي الصهاينة المعتدين من أعداء الله ورسوله .. إننا نستنكر المعاملة الوحشية التى يتعرض لها إخواننا مسلموا فلسطين ونطالب بإعادة حقوقهم المغتصبة وإرجاعهم إلى ديارهم فى أقرب وقت إن الآمال العريضة لتداعب نفسى وأنا أخاطبكم معبراً عما يجيش فى صدرى أمام ممثلوا خمسين دولة إسلامية ، إننا بالتقاءنا فى هذا المكان التاريخى أكدنا تساندنا وتضامننا ، وعليه فإنه من أوجب الواجبات أن نعمل جادين على توحيد كلمتنا واستعادة قوتنا لكى نتمكن من استلام راية القيادة من جديد عندها فقط نخلص العالم من المظالم والفساد وننشر نور الإسلام فى كل أرجاء الدنيا .